٢ـ الرومانسية (الابتداعية)

Romanticisme

بدأت تظهر في أوروبا منذ القرن الثامن عشر الميلادي حركة فلسفية أدبية هي «الرومانسية» أو «الرومانتيكية» التي عدّت ثورة عنيفة على كل ما جاءت به الكلاسيكية ؛ لأن الحياة الأوروبية عراها انقلاب خطير في جوانب كثيرة :

١ ـ انتقلت من عصر الارستقراطية والإقطاع والحكم الملكي المستبد إلى عصر الطبقة المتوسطة (البرجوازية) واستقبلت عصر الآلة والتصنيع . .

٢ ـ نشبت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) فقوضت النظام الملكي الإقطاعي ، وحملت مبادئ الحرية والديمقراطية ، وتمخضت عن نابليون الذي جسّد ـ بانتصاراته وفتوحاته ـ حلم الشباب الفرنسي ، ولكن نابليون انتهى إلى نهاية أسيفة ، ولم يستطع تحقيق الآمال المنوطة به ، فسيطر على الشباب يأس ، وتشاؤم ، ومشاعر إحباط وانطواء على النفس ، واعتزال للناس والحياة ، حتى كُتبت عشرات القصائد والقصص التي تصور أحلام اليائسين والمحرومين وأحاسيس القانطين والخائبين ، والهاربين إلى الطبيعة .

٣ ـ كان لبعض الفلاسفة والمفكرين من أمثال مونتسكيو ، وروسو ، وشاتوبريان وغيرهم ، أثر عظيم في إشاعة أفكار تركت بصماتها في هذا المذهب الثوري الجديد ، كالدعوة إلى القوميات ، واللون المحلي ، وإلى حقوق الفرد وتقديسه ، وكان روسو يرى أن الإنسان خيّر بطبعه ، ولكن المجتمع ، والحياة الحضرية ، والعادات والتقاليد التي وضعها أفسدته ، وهو مدعو إلى تحطيم هذه القيود ، والعودة إلى الطبيعة ليسترد صفاءه . ودعا شاتوبريان إلى نزعة مسيحية تصبغ الحياة ، وألف كتاباً سماه «عبقرية المسيحية» نفى فيه تعدد الآلهة الذي آمنت به الكلاسيكية ، ولم يبقِ من هذه الآلهة إلا «ربة الشعر» . .

في ملابسات كهذه وغيرها نشأت الرومانسية حركة ثورية تجديدية تدعو إلى أدب يعبّر عن هذه الحياة الجديدة وعن تصوراتها الفكرية والاجتماعية . .

وإذا كانت النهضة قد مهدت للعصر الكلاسيكي في الأدب الأوروبي فإن الرومانسية آذنت بعصره الحديث ، وقد عدت الحركة الرومانسية مع حركة نهضة الآداب أحد أشهر حدثين في الحياة الفكرية في أوروبا . .[1] .

وقد ابتدع مصطلح «الرومانسية» أو «الرومانتيكية» الكاتب الفرنسي الشهير ستندال (١٧٨٣- ١٨٤٢) في بحثيه المسمّين «راسين وشكسبير» حيث عالج إمكانيات تشخيص الأدب الجديد في عصره ، وتمييزه عما سمّاه بالأدب الكلاسيكي .

وقد ذهب ستندال إلى القول : إن كل كاتب عظيم كان رومانتيكياً في عصره ، ولم يتحول إلى كلاسيكي إلا بعد موته بزمن طويل . .[2] .

---

(١) انظر الرومانسية في الأدب الأوروبي ، لبول فان تيغم : ٥/١ .

(٢) معجم مصطلحات الأدب ، لمجدي وهبة : ص٤٨٨ .

الخصائص العامة للرومانسية

رأى بعض الدارسين أن الرومانسية لا تعد مذهباً أو مدرسة ، لأنها لـم تضع أصولاً أو قواعد ، وقدمت تصورات كثيرة غير متجانسة أحياناً ، ومتناقضة أحياناً أخرى .

وشكّ بعضهم أن يكون للرومانسية تعريف واضح محدّد ، وذلك لكثرة أشكالها ، وتعدد صورها . حتى كان «جيوبرني» يرى أن «الرومانسية تتخذ من الأشكال بقدر ما فيها من المؤلفين ، وأنها تفلت من أي تعريف واضح محدد دقيق . .»[1] .

ورأى «بريمون» ـ كما مرّ معنا من قبل ـ أن هنالك رومانسيات بقدر ما هنالك من رومانسيين . . وعد البلجيكي فير ميلين ـ في أثناء بحثه عن جوهر الرومانسية ـ مائة وخمسين تعريفاً من هذه التعريفات . .[2] .

ولكن ـ على الرغم من هذا التعدد ، وهذه الصور المختلفة التي اتخذتها الرومانسية ـ حاول النقاد رسم ملامح عامة لها ، توجد عند المبدعين المنتمين إليها جميعاً ، وإن لم يكن حضورها عندهم بدرجة واحدة من القوة والوضوح .

وهذا ما حاوله الناقد الفرنسي بول فان تيغم في كتابه«الرومانسية في الأدب الأوروبي» ، إذ إنه بعد أن تحدَّث عن الأشكال المختلفة التي تتخذها الرومانسية بقدر ما فيها من كتاب ومبدعين قال :

«ما نزال نعتبر الحركة الرومانسية واقعة حقيقية ، لا حدّ لتعقّدها بدون شك ، لكنها تنطوي على وحدة واضحة المعالم إلى الحدّ الذي يخوّلنا أن ندرسها دراسة شاملة يتراءى فيها ذلك التعقد وهذه الوحدة معاً . . هل هناك بين رومانسيِّ مختلف البلدان من الخصائص العامة المشتركة ما يكفي لإرساء مثل هذه الدراسة إرساء وطيداً؟ إني أعتقد ذلك . وقد حاولت التدليل عليه في بحثي عن الرومانسية الأوروبية .

---

(١) الرومانسية في الأدب الأوربي ، لبول فان تيغم : ١٢/١ .

(٢) السابق : ١٣/١ .

وليس يعني هذا أن تلك الخصائص تتجلى جميعها ـ بوضوح متساو ـ لدى جميع الكتاب الذين يتناولهم البحث ، بل يكفينا أن نعثر لدى الجميع على هذه الخاصة الرئيسة أو تلك ، مصحوبة في كل مرة ، بعدد جم من الخصائص الثانوية التي لا تقل عنها دلالة حتى نُدْعى إلى اعتبار الكاتب موضوع الكلام رومانسياً . .»[1] .

وقد لخص تيغم أبرز العناصر المشتركة للرومانسية بقوله :

«ففي الميدان الأخلاقي ، تحتج الرومانسية على سلطان العقل المطلق الذي جعل منه قرن الأنوار[2] الدليل الهادي الوحيد تقريباً للفكر البشري ؛ وهي لا تعتقد أن العقل يكفي الإنسان ، فتشيد بحقوق القلب . ينبغي للشعر خاصة أن ينعتق من نير العقل ؛ وفي النثر أيضاً لا بد للمحاكمة من أن تخلي مكانها لإلهام العاطفة .

وإذا كان العقل مشتركاً بين الناس جميعاً ، فإن الحساسية والهوى فرديان . وإذن فسوف ينصرف الأدب عن ذلك الطابع البدهي والضروري الذي أخلد إليه العصر السابق ؛ وسوف يغدو أقل إطلاقاً وعمومية ، وأكثر نسبية وارتباطاً بالمؤلف ، وأشد ذاتية وشخصية .

وفي الميدان الأخلاقي ذاته ، نلاحظ لدى الرومانسيين غياب الاطمئنان الشديد ، والتفاؤل الذي يخلقه الرضى بنظام ثابت ـ نظام سياسي واجتماعي وأخلاقي وأدبي ـ وهو رضى كان يميز معظم الكلاسيكيين . لقد كان ذلك الاتزان الوقتي الذي تلا هزات عصر النهضة موضعاً للازدراء . ونُبذ الأدب الذي تفتح فيه ذلك الاتزان تفتحاً فيه عجب ساذج أحياناً ، لكي يفسح المجال واسعاً للهموم والقلق والأشواق التي اعتنقها جيل أقل رضى بما هو كائن .

لقد كان الكلاسيكيون ، في جميع ميادين الأدب الجدير بهذا الاسم ، يقصدون إلى دراسة الإنسان عامة ، في ما فيه من مشترك عام ، في جميع الأزمنة

---

(١) السابق : ١٤ ـ ١٨ .

(٢) قرن الأنوار : هو القرن الثامن عشر .

والبلدان . أما الرومانسيون فيعنون ـ رداً شديد الجلاء منهم على هذا المفهوم ـ بالناس في تنوعهم التاريخي والمحلي ، وبأخلاقهم المختلفة ، وبحياتهم المادية التي تحددها الظروف الخارجية . إنهم ، إذ يهملون على الأغلب ، دقة الرسم ، ليؤثرون عليه بريق الألوان .

وفي الميدان الأدبي على وجه الخصوص ، أعرض الرومانسيون عن التقاليد الأدبية اليونانية واللاتينية التي ورثتها الكلاسيكية عن إنسية[1] عصر النهضة ، والتي كانت محاكاة القدماء أساساً لها . ولم يكن إعراضهم جهلاً بالقدماء أو ازدراء لهم ؛ بل كان تحرراً من سلطان وصايتهم . ليس هناك رد فعل أعم وأوضح من هذا . وعندهم أن الأدب ينبغي أن يغدو مستقلاً وحديثاً بيّن الحداثة .

ومن ثم ، فهم إن لم يرفضوا جميع الفنون الأدبية التقليدية ، إلا أنهم يرفضون على الأقل ، القواعد التي تحكم هذه الفنون . وهم لا يقبلون بتقسيمها تقسيماً دقيق التميز ، ولا بتسلسلها ، ولا بالفصل المطلق بين المأساوي والملهاوي .

وأخيراً فإن الرومانسيين يأبون أن يخضعوا لقيود الأسلوب الجَزِل الرفيعِ الذي يتكلّف الرِّفْعة والجزالةَ . إنهم يُعرضون عن التأنق المتصنّع ، وعن التلميحات الكنائية ، وعن تَشْخيصِ الأفكار المجرّدة التي تعسّفَ القرنُ الثامن عشر في استخدامها . وهم يُعْرضون خاصة عن الأسلوب الأسطوري ؛ ولعل الإقلاع عن هذا الأسلوب الاصطلاحي أشْملَ طابَعٍ في الرومانسية الشكليّة . .»[2] .

وهكذا تبدو المدرسة الرومانسية ـ كما هو واضح ـ ثورة عارمة على الكلاسيكية ، وتحلّلاً من جميع أصولها وقواعدها ، إنها نقيض جميع ما نادى به الكلاسيكيون .

وقد تتضح الأمور أكثر في عرض الملامح العامة للرومانسية مفصّلة في النقاط التالية :

---

(١) المقصود بالإنسية إحياء أدباء عصر النهضة للآداب واللغات القديمة .

(٢) الرومانسية في الأدب الأوروبي : ١٩/١ ـ ٢٠ .

١ ـ الأدب الرومانسي هو خلق وإبداع ، وليس محاكاة واحتذاء ، ولذلك دعوا إلى تحريره من ربقة الآداب القديمة وصبغه باللون المحلي ، ثم توسعت الدعوة حتى صارت دعوة إلى تحرير الفكر والحياة الإنسانية عامة من كثير من القواعد والقوانين الاجتماعية ، وارتفع شعار الحرية في الفن ، والتمرد على القواعد والأعراف ، وصار ضابط الأدب المعتبر عندهم ليس القواعد المقررة كما كان الحال عند الكلاسيكيين ، بل هو الفطرة والسليقة وهدي الطبع السليم .

٢ ـ دعت الرومانسية إلى تحطيم سيطرة العقل الذي نادت به الكلاسيكية ، ونادت بتحكيم العاطفة ، وإطلاق العنان للخيال الجامع المتوثب .وقالت : إن العقل ، إن كان شرح العالم المادي ، فإنه لا يستطيع النفاذ إلى ما وراء المادة ، بل ذلك منوط بالتجربة الفردية ، والشعور الداخلي أو الحدس . والخيال هبة كبرى «وهو المورد العذب لطاقة الروح ، وهو سماوي ، فعالم الخيال هو عالم الخلود ، وعالم الخيال دائم غير محدود ، أما عالم التوالد والنمو فمحدود آني . .»[1] . .

٣ ـ إذا كان الأدب الكلاسيكي أدب الإنسان النمط ، لأنه إنساني النزعة ، يُعْنى بتصوير المشاعر والأحاسيس التي يشترك فيها البشر جميعاً ، فإن الأدب الرومانسي هو أدب الفرد ، وأدب اللون المحلي والقوميّ . أعلى من شأن الشخصية الفردية ، ورفعها إلى درجة التقديس ، حتى بلغ من ذلك إلى حد عدم تحميل الفرد وزر أخطائه وسقطاته ، وعدّ المجتمع مسؤولاً عن ذلك .

وقد فتح الباب ـ في هذا الأدب ـ على مصراعيه أمام المشاعر الفردية الجامحة ، وأدب البوح والاعترافات ، وسكب العواطف الحارة بلا حساب .

٤ ـ ازدهر ـ على أيدي الرومانسيين ـ الشعر الغنائي خاصة ، إذ وجدوا فيه فناً مناسباً للتعبير عن العالم الداخلي للشاعر ، وعن المشاعر الفيّاضة . والشاعر عندهم عبقري ملهم ، والشعر إلهام من عل ، والشاعر ـ في نظرهم ـ لا يدري ما يعنيه لأن الشعر يهبط إليه إلهاماً أو إيحاء .

---

(١) انظر «في النقد الحديث» لنصرة عبد الرحمن : ص١٢٩ .

يقول جوتيه : «يأتون إليّ فيسألونني عن الفكرة التي ابتغيت تجسيدها في فاوست ، ظانين أني أعرف نفسي ، وأني أستطيع أن أخبرهم . .»[1] .

ولا يعني اهتمام الرومانسيين بالشعر الغنائي أنهم أهملوا الأجناس الأدبية الأخرى ، تطورت المسرحية على أيديهم ، فلم تعد تلتزم الوحدات الثلاث ، والفصلَ بين المأساة والملهاة ، واستمدت موضوعاتها وشخصياتها من التاريخ القومي ، واستخدمت لغة النثر . كما ظهرت ـ على أيدي الرومانسيين ـ الرواية التاريخية ، ورواية الشخصية . .

٥ ـ مجّد الرومانسيون الألم والحزن ، وتغنوا بمشاعر اليأس والخيبة ، وأسرفوا في التشاؤم والإحساس بالغربة . وشاع في أدبهم ما عرف بـ«مرض العصر» وأطلق على تلك الحالة من الشقاء الذي يتولد عند الإنسان نتيجة عجزه عن تحقيق ما يريده بسبب طاقاته القاصرة .

وأكثر الرومانسيون من التغني بالعواطف والحب بنوعيه الحسي والمعنوي ، ومجّدوا الطبيعة ، وشخّصوها ، واندمجوا فيها ، ورأوا فيها الصدر الرؤوم الذي ينبغي أن يرتمي الإنسان فيه ليستعيد صفاءه . ولذلك يعد أدبهم «أدب الريف» في مقابل «أدب المدينة» الكلاسيكي . .

٦ ـ رفض الرومانسيون شعار أن يكون الأدب تعبيراً عن المجتمع ، أو أن يرتبط بمبدأ خلقي أو ديني ، وبذلك كانوا بداية «الفن للفن» ، واتهم أدبهم بأنه أدب هروبي ، يفرّ من الواقع ومشكلاته ، أدب الأبراج العاجية ، وبذلك تخلوا عن القول بأهمية الشعر الاجتماعية ، ورأوا أنه تصوير للمشاعر الفردية . إنه ـ بتعبير شلي ـ أغنية يسلي الشاعر بها وحدته .

وقد اعترض إدغار آلان بو ـ وهو أحد كبار الشعراء الرومانسيين ـ على كل ربط بين الشعر والأخلاق ، وسفّه تعلق الأمريكيين في عصره بالربط بينهما ، فقال : «لقد زعمتم ـ تصريحاً وتلميحاً ، بصورة مباشرة وغير مباشرة ـ أن غاية الشعر

(١) انظر «في النقد الحديث» لنصرة عبد الرحمن ص١٢٩ .

القصوى هي الحقيقة . وقيل يجب أن تحتوي كل قصيدة خلقاً ، وأن يحكم على جودة القصيدة وفقاً لذلك الخلق ، وهي فكرة مضحكة . .»[1] .

وإذا كانت الرومانسية قد قامت في الأصل ثورة عارمة على المذهب الكلاسيكي ـ كما عرفت ـ فإنها قد اكتسبت فيما بعد مدلولاً أعمق من ذلك بكثير ؛ إذ أصبحت اتجاهاً شاملاً لتيارات فكرية وأدبية كثيرة تعني التغيير والثورة والخروج على النمطي المألوف .

ولذلك انضوى تحتها كتاب كثيرون جمعت بينهم ملامح الخروج ، والرغبة في التجديد والتغيير ، وإن اختلفوا بعد ذلك كثيراً ـ كما ذكرنا ـ في مجاليْ التنظير والتطبيق .

(١)انظر «في النقد الحديث» لنصرة عبد الرحمن ص١٣٠ .

openkandl.com

نقد الرومانسية

إن التصور الإسلامي للأدب لا يرفض المذاهب الغربية لمجرد أنها غربية ، بل هو مفتوح على كل ثقافة ، ولكنه مفتوح بوعي وبصيرة ، يأخذ من كل خبرة ما يتفق مع رؤيته الفكرية ، ويغني تجربته ، ويحمل الحق والخير ، ولا يشكل أي اعتداء على قيمه .

إن التجديد الذي نادت به الرومانسية غير مرفوض في حد ذاته ، بل الأدب الإسلامي أدب يحرص على التحديث والتجديد مادام ذلك منضبطاً بالمعايير الشرعية .

كما أن الدعوة إلى الصدق والتلقائية ، والبعد عن التقليد والتكلف لما لا يرفضه الإسلام ، بل يحرص عليه .

ولكن الرومانسية حملت أفكاراً ومضامين كثيرة لا تتفق مع التصور الإسلامي ، وكانت بداية تغريب خطير في شعرنا العربي الحديث عندما دخلت إليه .

وسنورد شذرات تدل على ما حملته هذه المدرسة الغربية من أو شاب ضارة لا تمثل رؤية فكرية تنبع من عقيدة هذه الأمة ومثلها الخيّرة .

حملت الرومانسية معاني اليأس ، والقلق ، والغربة ، والتشاؤم ، والإحساس بالضياع في شكل مَرَضيٍّ يبدو معه صاحبه وكأنه يجد لذاذة في الشكوى ، ومتنفّساً في البكاء ، ويرى في الألم مطهرة للنفس . يقول أحد الدارسين عن مدرسة أبولو :

«طابع الهروب فيها يمثل محوراً عاماً يتمثل أكثر ما يتمثل في عدم التكيف الاجتماعي والنفسي ، ولعل أهم تلك الأساليب التي واجهوا بها مجتمعهم : الهروب إلى الطبيعة ، والحبّ ، والموت ، والتشرد الدائم ،

والتجوال الهائم ، والألم الحاد اليائس الساخط ، والعزلة في عالم التصوف ، أو عالم الفكر والتأمل ، أو عالم الشعر المثالي . .»[1] .

دخول الرومانسية إلى الشعر العربي المعاصر :

انتشرت الرومانسية في الشعر العربي المعاصر ، وهاهي ذي جماعات تتنسم رياح هذه المدرسة الثورية القادمة من الغرب ـ هي المدرسة الرومانسية ـ تقف لجيل الإحياء بالمرصاد ، وقد مثلها أصحاب الديوان ، وأبولو ، وشعراء المهاجر .

وقد اشتركت هذه الطوائف جميعها في التأثر بما تدعو إليه الرومانسية من ثورة عاتية على الكلاسيكية ، ودعوة إلى التحرر من القيود ، وانتباذ القواعد والتقليد ، والتأكيد على أهمية التلقائية والغنائية في الشعر ، والتهوين من قداسة القديم واحترامه ، وإعلاء شأن الفرد والعواطف الذاتية ، ولكنها اختلفت بعد ذلك في مقدار ما أخذته عن هذه المدرسة الغربية ، وفي مدى ما احتفظت به من أصالة .

وعلى الرغم من هجوم العقاد الظالم ـ مدفوعاً بالحماسة للجديد ـ على شوقي ، وإسرافه فيه إسرافاً لم يشايعه عليه خصماء شوقي أنفسهم ، وعلى تلك المغازلة الناعمة التي كانت تُتبادل بينه وبين المهجري ميخائيل نعيمة الذي كان على الطرف الآخر يمارس الدور نفسه في تسفيه القديم ، والطعن في شوقي وأضرابه في كتابه (الغربال) بقيت مدرسة الديوان ـ ممثلة في العقاد ، والمازني ، وعبد الرحمن شكري ـ أصيلة ، وكان لهم من الاتصال القوي بالتراث ، وتضلعهم منه ، ما عصم شخصيتهم من الضياع ، ودفع الشعر العربي في طريق التجديد المحمود .

ولكن الأمر لم يسر على هذا النحو عند جماعة أبولو ، وجماعة شعراء المهجر من أتباع الرومانسية الغربية ، كعلي محمود طه ، وإبراهيم ناجي ، وصالح جودة ، وجبران ، وأبي ماضي ، وإلياس أبي شبكة وغيرهم ، ولا عند الخلف الذين جاؤوا من بعدهم من أتباع المدارس الغربية الأخرى التي راحت ـ بكثير من أفكارها السقيمة ـ تنخر في شعرنا العربي واحدة بعد الأخرى ، فإذا به يخرج من لبوسه

(١) تيار رفض المجتمع في الشعر العربي الحديث ، لسعد دعبيس : ص٢٣ .

يوماً بعد يوم ، فتضيع ملامحه ، وتغيّب هويته ، ويغدو كلاماً مرصوفاً بأحرف عربية ، ولكنه غريب الصور والمشاعر والمعاني .

اقتبس الشعر العربي المعاصر من الرومانسية عشرات الأفكار السقيمة ، والقيم الهجينة ، والعواطف المرضية ، مما جعل شخصية الشاعر الرومانسي شخصية مهزوزة غير سوية .

وحسب المتلقي العربي دلالة على شيوع هذه العواطف المسرفة الهوجاء ، وهذا الانسحاب السلبي من المجتمع ، أن ينظر في عناوين بعض الدواوين التي خلقها هؤلاء ، فإبراهيم ناجي هائم (من وراء الغمام) وحسن كامل الصيرفي ينشد (الألحان الضائعة) ومصطفى عبد اللطيف السحرتي يستنشق (أزهار الذكرى) ومختار الوكيل يسبح في (الزورق الحالم) ومحمود أبو الوفا يرسل (أنفاساً محترقة)[1] وهي كلها عناوين تقطر بالشكوى والأنين ، وتحفل بنغمات الهروب والتشاؤم .

وقد تبلغ هذه الحالة المرضية عند بعض الرومانسيين مبلغاً يستعذب معه الموت ويصوره حلماً مثالياً ، بل إن لوثة هذه الأفكار السقيمة حملت بعض الشعراء على الانتحار ، سعياً وراء هذا الحلم ، كأحمد العاصي ، ومحمد منير رمزي ، وإسماعيل أدهم ، وغيرهم ، وقد ترك العاصي قبل رحيله رسالة كتب فيها : جبان من يكره الموت . . جبان من لا يرحب بهذا الملاك الطاهر . . إنني أستعذب الموت الذي هو كالرائحة الذكية عندي . .»[2] .

وعلّق أحد الدارسين على هذه الرسالة قائلاً : ومن هذا الحوار والعبارات التي تركها العاصي في رسالته ، ومن قصائده يتبين أنه كان يستعذب الألم والموت على طريقة الرومانسيين الذين أصيبوا بمرض العصر ، وظل هذا الإحساس يتجسد حتى وضع حداً لحياته قبل أن يصل إلى الثلاثين[3] .

---

(١) الشعر المصري بعد شوقي (الحلقة الأولى) لمحمد مندور (دار النهضة ، مصر) ص٧ .

(٢) تيار رفض المجتمع : ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) السابق .

فشخصية الرومانسي غير سوية ، إنه إنسان مهزوز قلق ، يعيش حالة من فقدان التوازن ، وهو هارب باستمرار ، من المجتمع والناس ، يهيم على وجهه في بحر الشكوك والقلق ، لا يستطيع أن يتواءم مع من حوله ، أو يحسّ بالانتماء إليهم ، ينسحب إلى الطبيعة ، ويعشقها عشقاً يوشك أن يكون عبادة ، ويراها أماً حنوناً ، وصدراً رؤوماً ، ثم يبالغ في ارتمائه في حضنها حتى كأنه يصلي في محرابها ، وقد يهرب إلى أحضان الحب والخمر .

وإذا كان بعض الرومانسيين قد تغنى بحب يائس حزين ، تجرّع فيه المرارة والحرقة ، ثم استعذب ذلك على طريقة القوم ؛ فإن فريقاً آخر من الشعراء كعلي محمود طه ، وأحمد زكي أبي شادي ، وإبراهيم المصري وغيرهم ، قد صورت أشعارهم تجارب حب إباحي ماجن ، يقوم على عشق الجسد وتقديسه ، وعلى المباهرة بالفاحشة ، والحديث عن اللذة الجنسية والعري والتهتك .

وقد تأثروا في هذا بشعراء غربيين ، عرفوا بهذا الضرب من الشعر من أمثال لورانس وبودلير وفرلين وغيرهم ، وأعجبوا بهم أيما إعجاب ، فهاهو ذا أبو شادي يشيد بلورانس صاحب اتجاه «تعرية العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ، وكشف النقاب عن غريزة الجنس وإظهارها للناس عارية سافرة في غير تحرج أو حياء . .»[1] .

ويقول عنه : «وأما الشخصية الثائرة القوية ـ شخصية د . هـ . لورانس ـ فقد خلقت منه فناناً منقطع النظير في القرن العشرين ، وهكذا تفعل الحرية الفنية ، مع الجرأة والذهنية الناضجة ، الأعاجيب في خلق الآثار الأدبية الخالدة . . »[2] .

ومن عجب أن تجد المسلم العربي أبا شادي على ما رأيت من الحفاوة بمتهتك داعر كلورانس ، وأن تجد الغربي النصراني سبندر يهاجمه هجوماً عنيفاً فيقول عنه : «لقد ثار لورانس في الواقع ثورة كاملة على جميع النظم الاجتماعية القائمة ، بل يمكننا أن نقول إنه ثار ضد جميع النظم الاجتماعية الممكنة أيضاً . ومن الصعب أن

---

(١) دراسات في النقد الأدبي المعاصر ، لمحمد زكي العشماوي (دار النهضة العربية ، بيروت) ص٣١ .
(٢) تيار رفض المجتمع : ص٤٦ .

نتخيل مجتمعاً تتحقق فيه مطالب لورانس ويحتفظ بالتماسك الاجتماعي على الإطلاق . . »[١] .

وأعجب علي محمود طه بمجموعة من الشعراء البوهيميين الفرنسيين الذين لم يعرفوا الحياة إلا عهراً وخمراً وضياعاً في مواخير المدينة . واستمع إليه يمجّد (بول فرلين) وصعلكته في حانات الليل ، فيقول : لقد كانت حياة (فرلين) فاجعة محزنة ، فمن الحان إلى السجن . . إلى الماخور . . إلى الهيام في الطرقات . . إلى ملاجئ البر . . هذا هو الشاعر الخالد الذي كان أرخم صوت غنائي صدح به الشعر الفرنسي . . إن في حياة هذا المتشرد الكبير ضروباً من العبث ، وألواناً من الألم ، ولكنه العبث الذي تستقيم به حياة الفنان البوهيمي ، والذي يتيح للأدب في كل جيل فنوناً شتى من الإجادة والإبداع . . »[٢] .

وعلى هذا النحو راح يمجّد من شعراء الدعارة والعهر : بودلير ، وفرانسوا فيون ، وغيرهما ، ويشيد بشاعريتهم الفذة التي ولدت في حانات الخمر .

ويصور أحد الدارسين تأثر هذه الطائفة من الشعراء بمفهوم «الحب البودليري» الذي «يميل إلى الجنس المكشوف ، وعشق البغايا ، وتشويه صورة المرأة بتخيلها أفعى غادرة ، ومن أبرزهم علي محمود طه الذي تقترب موضوعاته كثيراً من موضوعات «بودلير» في ديوانه أزهار الشر ، تلك الموضوعات التي تدور حول الحب والإثم ، والشهوة ، والسخط ، والخمر ، والخطيئة ، والألم ، والشقاء[٣] .

ثم تجد لهذا الأدب العاهر المريض نقاداً يشجعونه ، ويدافعون عنه بحرارة ، فيدعو سلامة موسى إلى الأدب المكشوف ، ويؤيده درويني خشبة [٤] ، ويفلسف واحد مثل إبراهيم المصري هذا الاتجاه في تقديمه لديوان «أطياف الربيع» لأبي شادي ، ويرى أنه يمثل شبه عقيدة أخلاقية جديدة سادت أوروبا بعد الحرب

---

(١) دراسات في النقد الأدبي المعاصر : ص٣٢ .

(٢) حوار مع قضايا الشعر المعاصر : ص٩٥ .

(٣) السابق : ص٩٩ .

(٤) تيار رفض المجتمع : ص٥٢ .

العالمية الأولى ، وهذه العقيدة تتلخص في أنه خير للإنسان أن يتبع وحي غرائزه السليمة ، وأن يأخذ قسطه المشروع من لذات البدن ، وأن يتجنب ما استطاع كبت ميوله الجنسية ، وأن يصارح بهذه الميول ، ويسعى لإروائها ، فالحرية في معالجة الشؤون الجنسية ، والحرية في التمتع البدني المشروع ، والتغني بالجسم القوي الجميل ، وعبادة هذا الجسم ، وعبادة اللذة المتفجرة منه عبادة طبيعية ، تدنينا من الفطرة السليمة ، وترجع بنا إلى العصر الإغريقي الذهي ، وتنقذنا من طغيان العقل ومن آلية الحضارة . .»[1] .

وناقد ـ كالمصري ـ هذه فلسفته عن الكون ، وهذا مبلغ علمه من الحياة ، لا يُستبعد أن يجد فيما أتى به أبو شادي ومجموعته من أصحاب هذا الاتجاه الفاحش فتحاً خطيراً في تاريخ الشعر العربي . .[2] .

ومن الأوضار التي حملتها الرومانسية أفكار الثورة على العادات والتقاليد والأعراف ، حتى إن جوهرها ـ كما يقول الدكتور مندور ـ :«كان التحلل من كل الأصول والقيود ، والتخفف من أغلالها ، لكي تتحرر العبقرية البشرية ، وتنطلق على سجيتها . .»[3] .

وراحت تنادي بأن للشاعر «الحق المطلق في أن يرفض ما يشاء ، وأن يقبل ما يشاء ، ولا يخضع لقوانين أخلاقية ودينية واجتماعية وفنية تأتي من الخارج .

الإنسان في الرومانتيكية سيد نفسه ، ذاتي إلى أبعد الحدود . . مايقبله اليوم يرفضه غداً ، والعكس صحيح ، يرى الكون والوجود من خلال نظارتين مصبوغتين بلون عاطفته الخاصة . . »[4] .

وأشاع الرومانسيون ـ كما مرّ ـ فكرة التهوين من شأن العقل ، ورفض قوانينه ، ومضوا يحتكمون إلى العاطفة المشبوبة ، والإحساس الجامح الملتهب ، ويعظمون دور

---

(١) انظر «حوار مع قضايا الشعر» ص٩٥ .

(٢) السابق : ص٩٨ .

(٣) الأدب ومذاهبه : ص٥٥ .

(٤) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، لعبد الحميد جيدة : ص١٧٥ ـ ١٧٦ .

الخيال ، ويطلقون له العنان ، لا يكبحه كابح ، ليحل محل الوقار والروية ، والاتزان والسكينة ، فعرف شعرهم بالشطحات البعيدة ، والتهويمات المحلقة ، والصور المسرفة البعيدة التي تصدر عن أبراج عاجية أوشكت أن تفقد وشائجها مع الواقع .

كما روّجت الرومانسية لكثير من التصورات الفكرية والفنية ، التي تخالف التصورات الإسلامية ، فزيادة على ما ذكر ، أذاعت الرومانسية فكرة :

أ ـ الفن للفن :

مهدت الرومانسية ـ على نحو ما مر ـ لفكرة (الفن للفن) وذلك برفضها ربط الشعر بغايات خلقية ، أو توظيفه في الإصلاح والتربية ، أو تجنيده في خدمة القضايا الاجتماعية والسياسية ، وراحوا ينادون بالفن المجرد عن الغاية الذي يصدح فيه الشاعر كما يشاء مغنياً عواطفه الذاتية بجرأة واندفاع لا يعرفان التحشم والاستتار ، وعمّق إبعادهم الشعر عن وظيفته الاجتماعية الفجوة بينهم وبين الجماهير ، فلم يعد شعرهم «معبراً عن أهداف المجتمع بالشكل الذي عبر به الشعر التراثي عن هذه الأهداف ، فهو شعر شطحات ذاتية متوحّدة منطوية معتزلة للعالم . .»[1] شعر هروب وانعزال ، وانطواء على الذات .

وهذا كله لا يتفق مع التصور الإسلامي للأدب ، فالكلمة ـ على نحو ما سنبين عند كلامنا على البرناسية ـ الفن للفن ـ مسؤولية ، وهي ذات شأن خطير ، ولا بدّ أن توظف في خدمة الخير والحق ، فتأمر بمعروف وتنهى عن منكر .

ب ـ التهوين من الإثم الفردي :

ومن أوضار الرومانسية وأوشابها الكثيرة فكرة التهوين من شأن الإثم الفردي ؛ إذ هي تعد المجتمع مسؤولاً عن سقوط الفرد ، وتحمله وحده تبعة سقوطه ، وقد مضى الأدباء يدافعون عن البغايا والعاهرات واللصوص والقتلة ، ممّن توهموهم ضحايا أبرياء يحمل الآخرون وزرهم ، مسقطين بذلك معايير القيم الخلقية والدينية في الحكم على الخاطئين الذين لا يعفيهم انحراف المجتمع من الذنب ، ورحت تجد

---

(١) تيار رفض المجتمع : ص٦٠ .

عندهم أمثال هذه العبارات : اللص الشريف ، البغي الفاضلة ، المومس الطاهرة ، وغير ذلك مما يشير إلى هذه الدلالة التي نتحدث عنها .

وهذا كذلك مخالف للتصور الإسلامي ، إذ إن المسؤولية الجماعية لا تعفي الأفراد من المسؤولية الخاصة ، وانحراف المجتمع لا يسوغ انحراف الفرد ، ولا يسقط عنه وزره .

ج ـ التطرف في الفردية :

وقاد التطرف في الفردية عند هذه المدرسة إلى رفض السنة ، ورفض النواميس الدينية المتوارثة ، والاستخفاف بالقيم «إذا كانت لا تتفق مع غايات الفرد أو ظروفه . وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه بحجة أنه ليس هناك وسيط بين الإنسان واللّه ، بما يعطي لكل فرد ـ مهما كان جاهلاً ، أو محدود الذكاء ، أو شاذ التكوين ـ حق نبذ التقاليد العامة في الفكر والسلوك ، وحق تفسير الدين على هواه ، أو باختصار حق إقامة دين شخصي جديد خاص به تحت ستار الحرية الدينية . .»[1] .

والخلاصة :

تلك قبسات من القيم الهجينة الفاسدة التي حملتها الرومانسية الغربية ، وقد تسلل الكثير منها ـ كما رأيت ـ إلى شعرنا العربي الحديث ، فكان من شعرائنا من يرتسم خطاها حذو النعل بالنعل .

ومن الواضح مخالفة كثير مما حملته هذه المدرسة الثائرة للقيم الإسلامية ، سواء في إغراقها الشديد في العاطفة والخيال واحتقار العقل ، أو في نزعتها إلى احتقار الأعراف والتقاليد ، أو هروبيتها وانعزالها ، أو في فردانيتها المبالغ فيها ، أو دعوتها الصريحة إلى آراء وأفكار بيّنة الفساد ، أو ما شاكل ذلك مما دخل أدبنا للأسف الشديد عن طريق هذا المذهب الغربي الجامح .

---

(١) الاشتراكية والأدب ، للويس عوض : ص٢٨ ، ٢٩ .

قال إحسان عباس عن جبران : المؤسس الأول للمدرسة الرومانسية العربية «وكان رومانطيقياً إلى أطراف أصابعه ، وصوره لا تكاد تفترق في شيء عن شعراء الرومانطيقية بفرنسا وإنكلترا . . »[1] .

ولقد كانت الرومانسية هي البداية في تحديث الأدب العربي ، والشعر العربي ، ولكنها كانت بداية خطيرة ، كانت أول خطوة في وضع أدبنا العربي على درب الانحراف والتغريب ، ذلك أن الرومانسيين هم «المؤسسون الحقيقيون لتاريخ الأدب في معناه الحديث ، الذي نقلناه في أدبنا العربي عن أدب العرب . .»[2] . وهي فاتحة المدارس الأدبية التي تلتها ؛ فقد احتوت على بذور جميع التيارات التي عرفت بعد ذلك .

انتهاء الرومانسية :

ولكن ولادة المذاهب الفكرية ، والاتجاهات العقدية ، ونشوب الصراعات السياسية المختلفة في أعقاب الحربين العالميتين ، تمخض عن مدارس أدبية جديدة تدعو إلى تجنيد الأدب في خدمة الحياة والمجتمع ، وتنادي بارتباط الأديب بأحداث عصره ، ولم يعد مقبولاً هروب الشاعر الرومانسي وانكفاؤه على ذاته في عوالم الحب والجنس والطبيعة والأحلام المثالية ، فكانت الواقعية والوجودية وغيرهما .

وركب أدبنا العربي المعاصر ظهور الموجات الفكرية الجديدة ، وراح يستوردها كما تستورد السيارة والثلاجة ، فصار عندنا ممثلون للواقعية الغربية ، والواقعية الاشتراكية ، والوجودية ، وحملت هذه المدارس معها ركاماً لا حصر له من التصورات المنحرفة عن الكون والإنسان والحياة ، مما يجافي المنهج الرباني الذي هو منهج الفطرة السوية في الإنسان .

---

(١) فن الشعر : ص٤٦ .

(٢) مقالات في الأدب واللغة ، لمحمد محمد حسين : ص٢٦ .